هويات متخيلة.. هويات مقموعة..
أين هو الميزان؟ وكيف نميز القمح من الزوان؟

محمد الأسعد

قرأتُ أخيرا مقالة للراحل إدوارد سعيد لافتة للنظر نشرها في مجلة تساؤل نقدي (جامعة شيكاغو) في شتاء العام 2000 تحت عنوان "إختلاق وذاكرة ومكان". يشير فيها إلى الإهتمام الناشيء في تسعينات القرن العشرين بمجالين من مجالات العلوم الإنسانية، مجال الذاكرة والجغرافية، أو بتحديد اكثر حسب تعبيره، دراسة الفضاء الإنساني. وتفرع موضوع الذاكرة ليشمل أشكالا من الكتابة مثل المذكرات الشخصية، ومعنى الذاكرة الجماعية. وظهرت تحليلات أكاديمية الطابع بارزة لدور الإختلاق في قضايا مثل الموروث والجغرافية والتجربة التاريخية الجماعية.
إلا أن موضع اهتمام الراحل إدوارد سعيد في هذه الموجة من الدراسات كان خاصية معينة، وهي كيف تتلبس الذاكرة والجغرافية على حد سواء رغبة الغزو والهيمنة. أي كيف تُختلق جغرافية وذاكرة للمكان لتلبية حاجات الغزو والسيطرة. ويحيلنا هنا إلى كتابيه، "الاستشراق" و"الإمبريالية والثقافة"، فهما لايقومان فقط على ما دعاه "الجغرافية المتخيلة" (إختراع وإنشاء فضاء جغرافي يدعى الشرق مع اهتمام ضئيل بالجغرافية الواقعية وسكانها)، بل يقومان أيضا على رسم خرائط وغزو وضم أراض في ما أطلق عليه "جوزيف كونراد" الأماكن المظلمة على وجه الأرض، والأكثر ازدحاماً بالسكان مثل الهند وفلسطين.
وهنا تتبادرفلسطين العام 1948 إلى ذهنه كمثل من أمثلة القرن العشرين على التفاعل بين الإختلاق والجغرافية والذاكرة. ويعني بذلك إختراع الصهيونية لرواية "الاستقلال" من جانب، واغتيال الذاكرة الفلسطينية من جانب آخر. إلا أنه يسقط هنا سقطة غريبة، وهو مالفت نظري إلى هذه المقالة، خاصة أنه، رغم تذكيرنا بكتابيه الآنفي الذكر، يضع الروايتين، الصهيونية والفلسطينية، في كفة واحدة، ويرى أن "فلسطين تمثل نزاعاً ثرياً ومكثفاً بين ذاكرتين على الأقل، بين نوعين من اختراع تاريخي، بين نوعين من المخيلة الجغرافية"! بل ويعبو عن صدمته مرتين، الأولى أمام "إنعدام التصالح الجذري الكامن في أ صل ما سماه النزاع الفلسطيني- الاسرائيلي"، والثانية أمام "رفض القصة الرسمية الاسرائيلية أن تأخذ في اعتبارها المشاركة في الجريمة والمسؤولية عن انتزاع املاك الفلسطينيين"!
في ذهن إدوارد سعيد وهو يتحدث عن إختراع جغرافية وذاكرة سلسلة من الكتب الغربية، وأحاديث عن خلق الأساطير السياسية (ليونارد توميسن) أو الجماعات المتخيلة (بنيدكيت أندرسون)، أو الجغرافية وأثرها في إثارة الذاكرة والأحلام والاخيولات الجامحة (سيمون سكاما). بعض هذه الكتب يشير إليها بالإسم، وبعضها يقع في خلفية تفكيره، وما يجمعها هو التأكيد على أن الهويات، مهما كان نوعها، إنما هي صناعة ذاكرة تتفاعل مع جغرافية وحاجات ج ماعة إجتماعية، أي أنها في حقيقتها صناعة أساطير. إلا ان إدوارد سعيد ينسى كما يبدو أنه في كتابيه المذكورين لم يترك مجالا للشك في الطرف الذي يصنع الأساطير، سواء تعلق الأمر بالتاريخ أو ملكية الأرض أو الدور الحضاري،

ويكاد يقف على الأرضية نفسها التي يشيعها أمثال هؤلاء الكتاب الذين رددوا في أحد ردودهم عليه، أن الغرب ليس وحده من يصنع الأساطير، بل والشرق أيضاً. أي أنه إذا كان ثمة مأخذ على أسطورة الصهيونية الشائعة في ذلك العالم، أسطورة الأرض التي تنتظر الغائبين، وعودة هؤلاء
وتحرير "أرضهم" من الغزاة، فيجب أ ن يكون هو ذا ته المأخذ على اساطير الوجود العربي أو الفلسطيني منه، فكلا الذاكرتين إنشاء وإختلاق فضاء.
بالطبع هو لايغفل حقيقة أن أعظم معارك الفلسطينين تخاض كشعب له الحق في حضور متذكر، ومع هذا الحضور الحق في امتلاك وإعادة امتلاك واقع تاريخي جماعي، فقد شعرت كل دولة مستقلة ظهرت بعد تفكيك الامبراطوريات بعد الحرب الثانية، بضرورة رواية تاريخها الخاص حر ا من التحيز وإساءة تفسير تاريخها. ولكن الأمر المحزن أن هذا " لم يحدث بالنسبة للفلسطينيين، ليس لأن الاستقلال لم يتحقق فقط، بل لأن هناك فهماً ضئيلا لأهمية إنشاء تاريخ جماعي كجزء من محاولة نيل الاستقلال.. وهكذا فإن إعادة كتابة تاريخ فلسطين على يد خصم هائل الامكانيات مثل الحركة
الصهيونية كانت له نتائج كارثية ". وهنا أيضا نجد لديه عودة إلى مسألة الإنشاء الذي يتساوى فيه الخصمان. فهل كان على الفلسطينيين إذن منافسة الصهيونية في إنشاء واختلاق تاريخ وهوية ووجود جماعي؟
إحساس إدوارد سعيد بالنتائج الكارثية التي نجمت عن تمكن الصهيونية من إختلاق تاريخ لفلسطين ملائم لمشروعها، ينبع أساسا من تلمسه لآثار نجاح هذا الاختلاق والإنشاء ليس بين اليهود فقط، بل وفي مختلف أرجاء العالم الغربي، وفي بعض أجزاء الشرق أيضاً.
الأسباب التي يقدمها إدوارد سعيد لنجاح الإختلاق والإنشاء الصهيونيين مقنعة إلى حد كبير، "فهناك جاذبية وسلطة الرواية الصهيو نية وفكرتها القائمة على قراءة خاصة للتوراة في عالم الغرب، وهناك عدم قدرة الفلسطينيين الجماعية كشعب على إنتاج قصة مقنعة ذا ت بداية ووسط ونهاية أمام الغربي، وظلوا مبعثرين سياسياً، ضحايا للصهيونية، غير فاعلين، وهي تواصل الاستيلاء على المزيد والمزيد من الأرض والتاريخ(لقد كنا غير منظمين دائماً، اهتم قادتنا بالحفاظ على سلطتهم، ورفضت غالبية مثقفينا الزام نفسها بالعمل كفريق من أجل هدف مشترك، يضاف إلى ذلك أننا غالباً ما غيّرنا أهدافنا".
ولكن مرة أخرى، ومع صحة ما يذهب إليه من تعليل فشل مواجهة الرواية الصهيونية على الصعيد الغربي، يبدو لنا أن إيجاد تعادل بين كلا الذاكرتين، الفلسطينية والصهيونية، لايقبض على جوهر الصراع القائم، ليس بين ذاكرتين بل بين مشروع استعماري جند بين ماجند قوة الأسطورة التوراتية ورسوخها في الذهنية الغربية، وبين شعب تعرض للإبادة سواء كانت له ذاكرة جماعية أو لم تكن.
ما تغفله أطروحة أن كل هوية قومية أو اجتماعية إنما هي صناعة ثقافية، وإن الأمم جماعات متخيلة كما يذهب أندرسون على سبيل المثال، تستهدف طمس الفرق الذي ا جتهد إدوارد سعيد نفسه لإقامته بين "هويات" يختلقها المستعمرون لأنفسهم، وبين واقع الشعب الذي يتعرض للمحو والتجاهل، وهو ما جعل أمراً مثل إختلاق "شعب إسرائيل" في الخطاب الغربي مفهوما لدينا، وإن تنكره بالتالي للإعتراف بأن جريمة حدثت، لن يكون أمراً صادماً . نحن نفهم مسألة إختلاق الهويات، ولكن جعل مثل هذا الإختلاق قانونا عاما يسري على كل الهويات الوطنية والقومية والجغرافيات لايجب أن يخدعنا مرماه النهائي في تجريد الضحية من هويتها المقاومة والزعم بأنها هوية مختلقة شأنها في ذلك شأن أي هوية.
الباحث الاسكوتلندي "كيث وايتلام"، لايشك أبداً في أنه كان هناك هجوم متواصل ومدبر على التاريخ وهيمنة من ثم على الذاكرة ا لشائعة حول فلسطين، وهو ما يلتفت إليه إدوارد سعيد في آخر مقالته، فيلخص أطروحة وايتلام في نقطتين، الأولى سياسة الذاكرة الجماعية وخلق الباحثين الصهاينة لصورة جغرافية لفلسطين القديمة صاغتها الحاجات الأيديولوجية . ولكن هل يجعل الفعل

الصهيوني بإختلاق ذاكرة جماعية   تعيد إنشاء أحداث   من الماضي وحشوها بمعنى سياسي، من الضروري أن يختلق كل شعب ويعيد إنشاء ذاكرة؟ لاأعتقد أن من يمتلك ذاكرة غير مختلقة بحاجة إلى هذا النهج، وإن كان بحاجة إلى نهج آخر، هو إعطاء الخطاب الغربي والصهيوني اهتماما، وعدم اعتبار أن مانراه هو ذاته مايراه الآخر.

في هذه النقطة، وفي لفتة تبدو وكأنها خروج من إدوارد سعيد على سقطته الأولى في وضع الذاكرتين، ذاكرة المستعمرين وذاكرة ضحاياهم في كفة واحدة، يعترف بصحة نقد وايتلام لجهده الفكري حول الكفاح المعاصر من أجل فلسطين، وقوله في نقده " أنه (أي سعيد) لم يمنح اهتماما كافيا لخطاب الدراسات التوراتية ، مع أن هذا الخطاب كان بالفعل جزءاً من الاستشراق الذي تخيل فيه الأوروبيون ومثلوا الشرق الخالد كما يودون رؤيته، وليس كما كان   ، أو كما يعتقد أصحابه الأصليون" ويصادق إدوارد سعيد كأي باحث نزيه على قول وايتلام الذي انتقد في ا   لحقيقة نقصا خطيرا في كتاب الاستشراق "أن هذا الخطاب التوراتي أقصى الغالبية العظمى من سكان المنطقة "، وأنه كان أيضاً "خطاب سلطة انتزعت من الفلسطينيين أرضهم وماضيهم".